المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الخامس من المجلد الثامن والسبعين

١ مايو سنة ١٩٣١ — ١٣ ذو الحجة سنة ١٣٤٩

هل يقوى البشر على عوامل الضعف

في الحضارة الاقتصادية

تطوُّر السلالات في عصر الزحام الاقتصادي

لسر ارنست كيث

البحث عن موطن الحضارة المصرية الاول من اجلّ المباحث خطراً في هذا العصر واجمعها لعناية العلماء. ونعني بالحضارة المصرية الحضارة التي كانت مهداً لنشوء تجارة البشر ومدنهم وثروتهم وعلومهم . فرفش المنقب قد اخذ يثبت صحة الاسطورة التي جاءت في التوراة القائلة بان الاكتشاف الذي كان منشأ للحضارة السائرة الآن تمّ في العراق او حوله في تلك المنطقة من العالم القديم. وكلّ الباحثين مجمعون على ان طرائق معيشتنا ونظراتنا الى الحياة والاقتصاد بدأت لما وجد الانسان انهُ يستطيع الحصول على مورد مستمرّ للطعام بحرث الارض وتدجين الماشية . والتوراة تجعل جنة عدن في « العراق » . فقايين « حارث الارض » وهابيل « راعي الغنم » قاما بعملهما المذكورين على اطراف تلك الجنّة. ان قايين وهابيل هما اول الزرّاع الذين نعرف عنهم شيئاً محققاً . وبحسب التوراة تمّ الكشف عن فن الزراعة في العراق نحو اربعة آلاف سنة قبل المسيح

اما المكتشفات التي اخرجها المنقبون من بطن الارض في مصر والعراق واسيا الصغرى والهند في العهد الاخير فحملتنا على الاعتقاد بان اكتشاف فن الزراعة يرجع الى زمن اقدم جداً من التاريخ الذي يعيّنهُ علماء اللاهوت . واكثر علماء الآثار والتاريخ القديم مقتنعون بانهُ لا بدَّ من الرجوع باكتشاف الزراعة الى نحو ستة آلاف او ثمانية آلاف سنة ق . م . لتعليل ما يرونهُ في آثار الحضارات القديمة من الارتقاء والاتقان

فلنلقِ نظرةً على الادلة المتوفرة لدينا الآن . كانت طائفة من العلماء تظن الى سنة مضت ان مصر هي مهد الحضارة الحديثة اذ لا تعرف بقعة اخرى على وجه البسيطة تتوافر فيها العوامل المختلفة لحفظ المدوّنات والمنقوشات القديمة كوادي النيل . فالعلماء هنا اذ يعالجون التاريخ القديم يعالجون مدوّنات لا يتطرق الخيال والخطأ اليها . فعرفتهم بتاريخ مصر الى الالف الرابعة قبل المسيح لما شُرع في بناء الاهرام معرفة ثابتة مؤيدة بادلة كثيرة . ولكن المباحث الاخيرة التي قام بها السر جاي برنطن وزوجتهُ في جهة البداري على ضفة النيل الشرقية ترتدُّ بتاريخ مصر الى الالف السادسة قبل المسيح . وحتى في ذلك العصر المتغلغل في القدم كان سكان تلك الناحية يزرعون ويحصدون ويغزلون ويسكنون قرًى . فالمصريون في ذلك العصر السحيق كانوا قد خرجوا من ذلك الدور الذي كان فيهِ الانسان يعتمد في معيشته على الصيد والقنص

على ان الحفريّات الحديثة في العراق ، وبوجهٍ خاص في اطلال المدن القديمة كاور وكيش حوّلت انظار علماء الآثار من مصر الى الجنوب الغربي من اسيا في بحثهم عن مهد حضارة السلالات البيضاء . فقد ظهر ان هذه المدن العراقية كانت مزدهرة لما شرع المصريون في بناء اهراماتهم الاولى . فلا بدَّ من استعمال مساحات واسعة من الارض لزراعة الحنطة لتزويد سكان هذه المدن بالغذاء اللازم لهم . وقد عثر المنقبون على نماذج من الحنطة التي كانت تُزرع في ذلك العهد . كذلك كان لهم سلالات من قطعان الماشية المدجَّنة . وبنوا طرقاً لعربات تسير على عجلات . وشيَّدوا هياكل عظيمة . وكان عندهم ملوك وكهّان وجيوش . وكان تجارهم متصلين ببلدان سحيقة . وكان نظام البلاد القانوني قائماً على حماية الحياة وحماية المُلك ووجوب تنفيذ العقود . فالحياة التي كان سكان ما بين النهرين يحيونها في الالف الرابعة قبل المسيح لا تختلف في اركانها عن حياة الاوربيين والاميركيين الآن

والحضارة في الالف الرابعة ق . م . لم تكن محصورة في مدن السهل العراقي على ما ثبت من مكتشفات السر جون مارشال في وادي نهر السند بالهند . فقد كشف هناك عن آثار مدن قديمة قِدَم اور الكلدانيين . ومما عثر عليهِ في اطلال هذه المدن اختام كان يستعملها

التجار يثبت منها ان هذه المدن السابقة للتاريخ في شمال الهند الغربي كانت متصلة بصلات تجارية بالعراق رغم ١٥٠٠ ميل تفصل بين البلادين . ولم تتجه طرق التجارة من بلاد العراق الى الشرق فقط بل اتجهت الى الشمال الغربي ايضاً كما ثبت من المكتشفات الاثرية في اطلال مدن الحثيين في آسيا الصغرى

ففي مطلع الالف الرابعة قبل المسيح كانت حضارتنا قد اتخذت شكلها المدني (اي سكنى المدن) في جانب كبير من جنوب آسيا الغربي وكان لهذه الحضارة حينئذٍ تاريخ مجيد وراءها. فما هو مدى الزمن الذي استغرقته هذه الحضارة قبلما وصلت الى شكلها المدني ؟ الردُّ على هذا السؤال مبني بالاكثر على الظن . على ان العلماء الذين يحق لهم ان يبدوا رأياً في الموضوع يرجحون ان الانسان بدأ محاولاته الاولى الانتقال من عهد القنص الى عهد الزراعة كان من نحو ثمانية آلاف سنة ق . م . وعليه فيكون قد قضى نحو اربعة آلاف سنة بين اول عهده بالزراعة وبين الحضارة المدنية كما كشف عن آثارها في العراق (٤٠٠٠ ق . م .) . وحوالى سنة ٨٠٠٠ ق . م . كانت اوربا قد اخذت تتملص من آثار العصر الجليدي وكان سكانها يقطنون الكهوف ويأكلون ما يتيسر لهم

قد لا نستطيع ان نعرف قط الى اية سلالة تنتمي تلك الجماعة من الصيادين التي كانت اول جماعة في التاريخ انتقلت من القنص الى الزراعة ولا المكان الذي دارت فيه محاولتها. ولكن الدلائل المجتمعة لدينا تشير الى نجود ايران. ولاريب عندي في ان رواد هذه الحضارة كانوا ينتمون الى السلالات القوقاسية التي تشمل الاوربيين والعرب على السواء

* * *

ومع اننا لا نستطيع ان نعين المكان الذي جرت فيه المحاولة الاولى للانتقال من القنص الى الزراعة فلا يتعذر علينا تصور النتائج التي نشأت عنها. فاذا كان لدينا قبيلة مؤلفة من خمسين نسمة وتعتمد في معيشتها على النتاج الطبيعي الخارج من التربة والنهر احتاج ابناء هذه القبيلة الى نحو مائة ميل مربع من الارض الخصبة ليقوم نتاجها الطبيعي بأودهم. ولكن اذا حرثت ميلا مربعاً واحداً وزرعته زراعة بدائية امكنها ان تزيد عددها اربعة اضعاف . وتجد في نتاج هذا الميل المربع المزروع ما يكفيها غذاء . وتظل القبائل المجاورة لها التي تعيش على نتاج الارض الطبيعي حيث هي من ناحية عدد السكان . فالقبيلة التي اصبحت زراعية تزداد عدداً وقوة ومنعة ويصح في مستطاعها ان تستقرَّ في بقعة معينة وان تبني مساكن وان تنشئ جماعات مستقرة وتبدع فنوناً وصناعات

وهكذا يتاح لهذه القبيلة رويداً رويداً ان تنظر الى الارض نظر الزارع الاقتصادي

المستقرّ لا تظر الصائد الرحال. واذ يزداد عدد هذه القبيلة وتزدحم ارضها يتطلع ابناؤها الى الاراضي المجاورة لهم. والمؤكد ان هذه القبائل كوّنت قاعدة عمرانية اساسية من غيران تدري. وقد جرى عليها البشر منذ عشرة آلاف سنة قبلما افرغها الكاتب ماهان في عبارة واحدة اتى على ذكرها في كتابه (مشكلات آسيا صفحة ٩٨) اذ قال: «ان ادّعاء شعب متوطن للاحتفاظ بالسيطرة على بلادهم الى مدى غير محدود لا يتوقف على الحق الطبيعي (الولادة في البلاد والنشأة فيها) بل على استثمار البلاد بطريقة تكفل للعالم حقهم الطبيعي بأن مصادر الثروة العامة يجب الا تهمل بل يجب استنباطها للخير العام»

فزعماء القبائل الزراعية الاولى نظروا الى البلاد المجاورة لبلادهم ورأوا جيرانهم الصيادين لا يعرفون كيف يستخرجون من الارض كنوزها الزراعية بالزراعة فطغوا عليها وتملكوها جرياً على قاعدة ماهان — قبل ولادة ماهان بمائة قرن — وهذا النظر الى الحقوق الطبيعية التي بدأها الزراع الاولون في بقعة من بقاع جنوب آسيا الغربي كانت مفتح اعظم ثورة في التاريخ. فبفعل هذه النظرة امتدت الزراعة وتحولت وارتقت واصبح للناس مقياس جديد يقيسون به قيم الاشياء والاعمال — وهو المقياس الاقتصادي

وأخذ هذا الانقلاب يمتدّ رويداً رويداً في بقاع الارض المأهولة بالسلالات البيضاء والسلالات الصفراء. اما السلالات السوداء فقد كانت ولا تزال الى مدى بعيد معارضة لهذا الامتداد. فالشعوب السوداء لا تزال محتفظة في مواطنها بالمقاييس السابقة لتنظيم الحياة الاقتصادية. وانقضت بضعة آلاف من السنين على اكتشاف الزراعة في آسيا على ما تقدم قبل ان تصل قواعدها الى غرب اوربا في الالف الثالثة قبل المسيح عن طريق الغزاة والفاتحين. فكل موجة من امواج الغزاة التي تدفقت على اوربا كان افرادها ابرع في فنون الزراعة من ابناء الموجة السابقة لهم

وهنا قد يوجه اليّ احد النقاد السؤال التالي: ماذا نعرف عن احوال المعيشة من نحو ٨٠٠٠ سنة ق.م. اي قبلما بدأت الثورة الاقتصادية التي نشير اليها

انا نستمدّ معرفتنا بهذه الاحوال من مصدرين. فلدينا آثار تبين لنا معيشة الناس في اوربا وفلسطين من عشرة آلاف سنة الى عشرين الف سنة. وهذه الآثار محفوظة في الكهوف ونعلم ان سكان اوربا كانوا قبائل حينئذ وتاج الارض الطبيعي كان وسيلة معاشهم الوحيدة

ولكن لدينا مصدر آخر يفوق المصدر المتقدم. فقاعدة ماهان لم تخترق كل الحواجز الطبيعية الى كل بقاع الارض. ولا يزال على سطح الارض جماعات تعيش كما كان الناس يعيشون قبل اكتشاف الزراعة. فلما اخذ الناس البيض يستوطنون قارة استراليا في اواخر القرن

الثامن عشر كانت تلك القارة الشاسعة مفصولة الى قبائل عديدة كل قبيلة تقيم في ارض خاصة بها ولا تتعداها. وكانت كل قبيلة تعرف حدود حقها في الصيد والقنص . وان الخروج من هذه الحدود قد يفضي الى الموت على ايدي افراد القبيلة التي يتعدّى عليها. ومما لاريب فيه ان بعض القبائل كانت آخذة في النماء والازدياد توسعت آفاق بلادها بالقوة . وثمة قبائل اخرى كانت تضعف فيتعدى عليها وتفقد بعض بلادها او كلها

وتقسيم الناس على هذا النمط الى قبائل كان في عصر ماض منقلب في التاريخ قاعدة عامة. ولا تزال آثار ذلك بادية في بعض البلدان. كما في اسكتلندا وبلاد العرب . فالذي يظن ان الارض في العصور القديمة كانت غير مخططة وان كل قبيلة كانت تستطيع ان ترود البقاع كما تشاء مخطىء في ظنه. فالقبائل كانت مرتبطة ببلادها الخاصة بروابط كثيرة. منها القبائل المجاورة المستعدة لحمى ذمارها. ومنها صعوبة الكفاح على قبيلة تعيش بالقنص والصيد فقط . لان الفتوحات الحربية لا تتاح الا للقبائل التي تعلمت الزراعة لان ذلك يمكنها من انشاء مستودعات للمؤن والذخائر. فالصورة التي ترتسم في ذهننا لحالة العالم في تلك العصور القديمة هو شبكة من القبائل منتشرة فوق سطح الارض كل قبيلة تقيم في بلاد خاصة بها. وكل بلاد على ذلك كانت مهداً مستقلاً لنشوء البشرية وتطورها

وتقسيم الارض الى مناطق مستقلة بعضها عن بعض يقيم فيها جماعات يختلف بعضها عن البعض الآخر اختلافاً كبيراً من اهم الامور التي يعنى بها عالم النشوء البشري . وسواء كنا من اتباع داروين او من اتباع الخلق المستقل يتحتم علينا ، كناس يفكرون، ان نعلل كيف نشأت السلالات البشرية . فكل سلالة تختلف عن الاخرى اختلاف الابيض عن الاسود والاصفر عن الاسمر

واذا سئل عالم النشوء ان يبيّن الاحوال التي توالي لنشوء سلالات بشرية مختلف بعضها عن بعض لم يستطع ان يتصور ما هو اكثر مواتاة لذلك من الصورة التي رسمناها آنفاً . فكأن كل مقاطعة اصبحت محطة للتناسل — اذا استعملنا الاصطلاح العصري — اي مهداً لنشوء سلالة او ضرب مختلف عن السلالات او الضروب الاخرى . وكأن الطبيعة قد اقامت مقاطعة ضد مقاطعة اخرى وبنت النشوء على اساس التزاحم منعاً للاختلاط . وعلماء الانثربولوجيا يجزمون بان السلالات البشرية تكوّنت في ذلك الدور الذي نستعمله بدور النشوء الطبيعي

* * *

فلنلخص الآن اهم الحقائق التي بسطناها فيما تقدم . فقد ذكرنا البواعث على الاعتقاد

بان فن الزراعة كشف عنهُ من نحو عشرة آلاف سنة اي نحو ٨٠٠٠ ق . م . والاسباب التي تحملنا على جعل المكان الذي تمَّ فيه هذا الاكتشاف في بقعة من غرب اسيا الجنوبي اصبحت مركز انقلاب عالمي في طرائق المعيشة الانسانية . ولتبيان اثر الزراعة في عمل النشوء الطبيعي ، وصفنا حالة الجماعات البشرية قبل ذلك العهد لما كان الانسان لا يزال عبداً للتربة لا ينال منها الاَّ ما تيسجهُ لهُ من النتاج الطبيعي . فالطبيعة اذاً كانت قد نشرت على سطح الارض « مهوداً للنشوء » لانشاء سلالات جديدة بشرية اسمى من السلالات السابقة واقوى

* * *

والآن اودُّ ان ابيّن لقرائي ان حضارتنا التي بدأت لما اُكتشف الفن الزراعي قد دمّرت نظام الطبيعة المحكم لنشوء السلالات . فنحن لا نعيش الآن في عالم طبيعي كما كان الانسان يعيش قبل عهد الزراعة بل في عالمٍ من صنع الانسان . والحضارة قد حطمت الوسائل التي ابدعتها الطبيعة لعمل النشوء

لننظر الى المرتبة التي بلغها الانسان في غزو الطبيعة والسيطرة على قواها في عهد المدن العراقية القديمة ، اي في نحو الالف الرابعة قبل المسيح . فتلك المدن كانت قد اصبحت مراكز للتجارة . ومن الواضح ان اكبر الحوائل لاتساع نطاق التجارة انما هي حدود القبائل كما وصفناها

والتجارة لا تستقيم ولا ترتقي الاَّ اذا امّنت هذه الحدود . لذلك كان لا مندوحة عن تجييش الجيوش وحفظها في هذه المدن على قدم الاستعداد لتأمين الطرق التجارية في بلدان قبائل معادية . وهذه الجيوش كانت تعود من غزواتها باسرى وكثرة الاسرى تجعل قيمة العمل رخيصة . والتجارة تغري التجّار بالمغامرة والانتشار في سبلها والاقامة بين اقوام اغراب . فمدن العراق في ذلك العهد زهت وأثمرت بتحطيم نظام القبائل — وهذا النظام جزء من طريق الطبيعة لخلق السلالة النقية

اما حكام تلك المدن ورجال السياسة فيها فاكبّوا على جمع الثروة لا على خلق سلالة قوية من الناس . وقصة بناء الامبراطوريات هي هي في العصور القديمة والعصور الحديثة . غرضها الرَّخاء الاقتصادي وهذا الغرض لا يتحقق الاَّ بمحو الحدود الفاصلة بين القبائل

ونستطيع ان نرى هذه الحقيقة كأنها في مرآة اذا نظرنا الى نتائج ادخال الحضارة الاقتصادية الى افريقية الجنوبية حيث يحاذي النظام الجديدُ نظام القبائل القديم . فالقبائل هناك ما زالت سارية على قواعدها القديمة تنحو لحكم العادات والتقاليد . فهم لا يعلمون شيئاً عن الاسواق التجارية والارباح المالية والزحام الاقتصادي . ولا هم يملكون نقداً للمعاملة . وليس عندهم نظام للملكية

الفردية. أي انهم يعيشون معيشة غير اقتصادية. ولكن وسائل الحضارة الحديثة تحمل هؤلاء الاقوام على الانتقال من المعيشة غير الاقتصادية الى ظل المعيشة الاقتصادية اي انهم يصبحون عمالاً يعيشون على اجورهم. فهم يتنقلون في بضع سنوات من حالة الى حالة انتقالاً استغرق البشر آلاف السنين

وفي هذا الانتقال يقضى عليهم. لانهم في حياتهم الاولى كانوا يعيشون لخلق السلالات الجديدة. وأذهانهم معدة لذلك. ولا يصلح منهم للحياة الجديدة الاقتصادية الا من كان قادراً على تحويل طبائعه لمجاراة هذه الحياة. فزعماء القبائل الذين لا يرضخون يقضى عليهم في هذا النزاع بين الحياتين. هذا ما نراه في افريقية الجنوبية. وما نراه فيها جرى قديماً في مدن بابل وفي شعوب اوربا القديمة

فالقراء يدركون الآن ما هو المراد من قولي «ان البشرية تمرُّ الآن في دور انتخاب لم يأت عليها من قبل». فان تاريخ البشر في نظري ينقسم الى دورين : الاول هو الدور الطويل السابق للتاريخ لما كان نشوء السلالات البشرية يجري على مقتضى الطبيعة. ففي ذلك الدور مضى النشوء البشري الى غايته بنشوء سلالات جديدة كانت كل سلالة أعلى من سابقتها . والغرض من اعمال الطبيعة كان ارتقاء النوع — لا جمع الثروة

والدور الثاني بدأ من نحو عشرة آلاف سنة بالكشف عن قواعد الزراعة فأفضى الى حضارتنا الحالية . والغرض الاول في هذا الدور هو جمع الثروة لا تحسين النوع . فالعمال يختارون من الناس الذين يقبلون بأرخص الاجور. والمقاييس الاقتصادية الآن تختلف عما كانت عليه في بدء هذا العهد. وقواعد الاقتصاد تختار من بينها لا من يثور عليها. فالبشرية الاليفة الخانعة المجهدة هي البشرية الموائمة للنظام الاقتصادي

فهل يؤخذ مما تقدم اني اريد ان اعود بالبشرية القهقرى الى عهد القبائل المذكور ؟ كلاّ. وجلّ ما اريده هو ان يتبين الناس الطريق السائرين فيه والى اين ينتهي . اما والعالم اصبح من صنع الانسان اكثر مما هو من صنع الطبيعة فعلى الانسان ان يقوم ببعض ما كانت تقوم به الطبيعة من قبل. ورجال الحكومات قد اخذوا يدركون ان تنشئة سلالة قوية اهم من حشد ثروة قومية كبيرة . والادلة على هذا الادراك بادية في القوانين التي سُنَّ في بعض البلدان لتقييد الهجرة اليها وفي حركة القوميات في اوربا المعروفة « بتقرير المصير » وهي حركة غرضها استقلال كل قوم وحريته في تقرير مصيره القومي ، وفي انتشار الآراء اليوجنية — كل هذه ادلة على ان الشعوب البيضاء عازمة ان تجعل القواعد الاقتصادية عبدة لرغباتهم وأغراضهم لا سيّدة . فشعار اليوجني الانسان اولاً ثم الثروة